بسم الله الرحمن الرحيم

البيئة

١٤٤٧/٧/٢٠

الحمدُ لله الذي أتقن خلقه، وأقام لهذا الكون ميزانًا دقيقًا، نحمده على نعمه الظاهرة والباطنة، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، الدالّ على الرفق، والداعي إلى حفظ الفطرة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

في هذا الكون آياتٌ لا تُرى بالعين وحدها، بل تُدرَك بالبصيرة إذا صفا النظر وسكنت النفس، حين تهدأ الضوضاء، وتُترك الأشياء على فطرتها، يبدأ المعنى في الظهور، قد تراها تفاصيلَ صامتة، لكنها تتكلم، نظام دقيق لا يختلّ إلا حين تمتد إليه يد العبث. حديثنا اليوم عن ميزان خفيّ إن استقام استقامت الحياة، وإن اختلّ اضطرب كل ما حولنا، دون أن نشعر من أين بدأ الخلل.

إنها البيئةُ. آيةُ اللهِ المنظورة، زادها الخالقُ زينةً وجمالًا، وصانها بعنايته وقدرته؛ فالمحافظةُ على البيئة ليست شعارًا يُرفع،

ولا موسمًا يُحتفل به، بل عبادةٌ نتقرّب بها إلى الله، حتى ترى في قطرة المطر حياة، وفي ورقة الشجر آية، وفي صوت الطائر تسبيحة؛ فتغدو المساحةُ التي تعيش فيها عمرانًا، لا عبثًا ولا فسادًا.

إنَّ خطرَ التلوّث البيئي اليوم خطرٌ عالميٌّ متفاقم، غير أنّ الخطأ الشائع أن يُربط بعدد السكان؛ والصحيح أن الأزمة أزمةُ ثقافةٍ وسلوك، فقد أظهرت تقارير دولية أن دولًا قليلة السكان تصدّرت معدلات التلوّث، مصادرُ طاقة ملوِّثة، وضعفٌ في إدارة النفايات، وغيابٌ تام عن الوعي البيئي، حتى بات الهواء فيها خانقًا، والبيئة مستنزفة.

وهذا يقرر حقيقةً واضحة: أن عمارة الأرض لا تكون بالأجساد، بل عمارتها بالضمائر الحية المؤمنة.

وإذا كان الحديث عن الميزان الخفيّ الذي تستقيم به الحياة، فإن من أعظم صوره: أن يُتْرَك الكون على فطرته، وأن يُزار بلا إفساد، ويُقصَد بلا عبث؛ ولذلك كان النبي ﷺ يخرج إلى البر، لا لهوًا ولا عبثًا، بل سكينةً ورفقًا، وتعليمًا للأمة كيف تُلامَس الطبيعة دون إفساد، فعن شريح بن هانئ قال: قلت

لعائشة رضي الله عنها: هل كان النبي ﷺ يبدو؟ - أي يخرج إلى البادية- قالت: نعم، كان يبدو إلى هذه التلاع، فأراد البداوة مرةً، فأرسل إلى نَعَمٍ من إبل الصدقة، فأعطاني منها ناقةً محرَّمة – وهي التي لم تُركب ولم تُذلَّل – ثم قال: "يا عائشة، عليكِ بتقوى الله عز وجل والرفق، فإن الرفق لم يكن في شيء قط إلا زانه، ولم يُنزع من شيء قط إلا شانه"(١).

أيها المسلمون. في فصل الشتاء، يكثر خروج الناس للتنزه والفرجة، فمن الآداب المستصحبة:

-إذا خرجت فأخرج والديك، ابدأ بهما، ورد لهما صنيع التربية، وثن بأهلك وأولادك.

-ابتعد عن مواطن الخطر، كمجاري السيول والأودية، ومن الناس من لا يقف تهوّره عند حدّ نفسه، بل يتعدّاه إلى غيره، فيغامر بأهله أو أصحابه، فيركب بهم لجج الخطر، فيعبر واديًا جاريًا فتجرفهم السيول وتغرقهم، أو يقتحم كثبان الرمل المرتفعة بطيشٍ واستهانة، فيعرّض نفسه ومن معه لحوادث مميتة، أو

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما، وصححه الألباني.

لإعاقاتٍ دائمة لا تُمحى آثارها.

-حذار من تلويث المتنزهات بمخلّفات الأكل والشرب وغيرها، استشعر ما يترتب على تركها من إفسادٍ وإيذاءٍ للناس، فإن رمي المخلفات في غير مواضعها أمارةُ جهلٍ، وقلةِ علم، وفسادِ ذوقٍ وطبع، بل إن تلويث هذه الأماكن من الإيذاء المحرَّم؛ لقوله ﷺ: "اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل"[1].

ويُقاس على ذلك ما يُرمى من مخلفاتٍ ورقيةٍ وبلاستيكيةٍ ومعدنية، وليس إحراقها عند الرحيل حلًّا، بل هو زيادة في الفساد، وإنما الحل أن تُجمع وتُربط وتُرفع عن وجه الأرض؛ لتبقى مأمونة، ويسلم من أذاها عابر السبيل والبهائم، فقد دفع غير واحدٍ من الحيوان حياته ثمنًا لما خلّفه الإنسان من غفلة.

- الزم الحذر في أمر النار، فلا تُشعلها إلا في مواضعها المأذون بها، ولا تتركها عند الارتحال دون إطفاء، فإنها عدوٌّ كامن، وشرٌّ مستتر، وكم جرّت من كوارث، وخلّفت من مآسٍ،

(١) رواه أبو داود والطبراني والحاكم، وحسنه الألباني.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل، فحُدِّث بشأنهم النبي ﷺ فقال: "إن هذه النار إنما هي عدو لكم، فإذا نمتم فأطفئوها عنكم" [1].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم.

الحمد لله.

لقد أمر ديننا الحنيف بالحرص على الزرع، وحثّ على الغرس، حتى في أحلك اللحظات وأعظمها رهبة، ولو قامت القيامة، أي: ولو بدت علاماتها وشارفت الدنيا على نهايتها؛ قال ﷺ: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألّا يقوم حتى يغرسها فليفعل"[2].

يكشف الحديث عن الطبيعة الخيّرة للإنسان المسلم، الذي خُلق ليبني بالدين ويُعمِّر، لا ليُفسد ويُدمِّر، فهو بفطرته عاملٌ معطاء للحياة، وفي مقابل ذلك، نهى ديننا العظيم عن قطع الشجر

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد وصححه الألباني.

إذا كان لغير حاجة، ولا سيما في ظل أنظمة الدولة الصارمة التي تُجرِّم قطع الشجر في أي مكان، ورتّبت على ذلك غراماتٍ شديدة، قال ﷺ: "من قطع سدرةً صوَّب الله رأسه في النار" [1].

قال أبو داود معلقًا: "يعني من قطع سدرةً في فلاةٍ يستظل بها ابن السبيل والبهائم، عبثًا وظلمًا".

أرقامٌ صامتة، لكنها ناطقة بالألم؛ خمسٌ وستون بالمائة من أراضي الرعي تدهورت، ومائة روضةٍ برية في الرياض كادت أن تُمحى، بسبب احتطابٍ جائر، ورعيٍ مفرط، وعبثٍ أعمى. أفلا نعتبر؟ أفلا نحفظ ما بقي؟ وقد تنبهت الجهات المعنية إلى هذا الخطر الجسيم، فبلغ من حزم الدولة – أيها الإخوة – في حماية البيئة، أنها كثفت من علميات الضبط لمن عبث برمي مخلفاتٍ صناعية في غير مواضعها، فطُبِّقت بحق المخالفين الأنظمة بلا تهاون، إذ قررت العقوبات بغراماتٍ قد تبلغ عشرة ملايين ريال.

وليست القضية -عباد الله - أرقامًا تُتلى، ولا أنظمةً تُعلن،

---

(١) أخرجه البيهقي وأبو داود، وحسنه الألباني

بل أمانةٌ في الأعناق، وموقفُ ضميرٍ يُختبر عند أول احتكاك بالأرض التي نعيش عليها. فحيث وُجد الوعي حُفظت البيئة، وحيث غاب الضمير تساقطت الأنظمة دون أثر. فلنكن جزءًا من الإصلاح لا من الإفساد، وحراسًا لما بقي لا شركاء في إضاعته.